

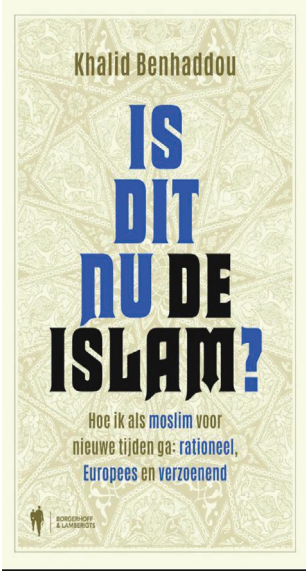
مراجعات الكتب | Book Reviews

دعوى الإسلام العقلاني في السياق الأوروبي مراجعة لكتاب "هل هذا هو الإسلام الآن؟"

The Issue of Rational Islam in the European Context

Review of the book: "Is dit nu de Islam?"

التجاني بولعوالي^(١) | Tijani Boulaouali



الكتاب:

العنوان: «هل هذا هو الإسلام
حقًا؟ كيف أعيش مسلمًا أوروبا
في الزمن المعاصر»؟

الكاتب: خالد بن حدو

الناشر: دار برغرهوف ولامبرخت،

بلجيكا

اللغة: الهولندية

عدد الصفحات: ٢٢٤ صفحات

مقدمة

إن كتاب هل هذا هو الإسلام الآن؟ يسعى إلى الإجابة عن أسئلة المرحلة الإشكالية كما يعبر الكاتب نفسه، وهي ماذا نعني بالإسلام اليوم؟ من يمثل أو بالأحرى من يمكن أن نعتبره الممثل الحقيقي للإسلام؟ هل الإرهابيون الذين يقتلون الأبرياء باسم الدين أم شيعة الأسد وإيران أم سنة السعودية وثوار سوريا أم ملايين المسلمين الذين يريدون العيش في سلام والتعايش مع الآخرين؟ ترى من يملك الحقيقة؟ ومن ينبغي لنا أن نصدق؟

الإسلامي لدى وزارة التعليم والتكوين لأن يؤدي دور المستشار لدى الهيئات التربوية والسياسية والقانونية، لا سيما في قضايا التدين والتطرف والإرهاب. وهذا لم يجعله يتخلى عن مهمته الدينية الأصلية باعتباره إمام متنورًا وخطيبًا معاصرًا. يحكي عن بدايات تحصيله الدراسي قائلًا: «عندما حفظت القرآن عن ظهر قلب كنت أبلغ من العمر تقريبًا ثلاثة عشر سنة. وكان ذلك باللغة العربية، وهي اللغة التي لم أتعلمها في المسجد إلا لما بلغت الثامنة، حيث كان أبي المحافظ يرسلني لتلقي قيم وعادات دينه الإسلام. أبي هاجر في ستينيات القرن الماضي من المغرب إلى بلجيكا في إطار ما يعرف بالعمال الضيوف، وقد التحقت به أمي فيما بعد. عمل أبي طوال ثلاثين عامًا في البستنة. أما أمي فكانت ربة بيت ترضى أسرة من ثمانية أطفال»^(٢).

وبعد أن حفظ القرآن عن ظهر قلب ودرس العلوم الشرعية في المركز الثقافي الإسلامي في بروكسيل الذي أسسته المملكة السعودية في ستينيات القرن الماضي، سوف يعين إمامًا خطيبًا، ولم يكن قد تجاوز بعد الثامنة عشر من عمره، وقد كانت تجربة مفصلية في حياته، يقول عن ذلك: «بعد ثماني سنوات من الدراسة في المركز، يمكن لي أن أسمى نفسي إمامًا. تقريبًا عقب ذلك مباشرة وكان عمري ثمانية عشر

سعيًا منه إلى صياغة بديل واقعي وموضوعي للوضعية المزرية التي ما انفك يتخبط فيها المسلمون: داخليًا وخارجيًا، شرقيًا وغربيًا، يعتقد الكاتب أن الحل هو الإسلام العقلاني، سواء من خلال العودة إلى أمجاد الحضارة والفلسفة والمعرفة الإسلامية أو عبر اللحاق بالحضارة الغربية المتقدمة والتعايش البناء من الآخرين.

نحاول في هذه المراجعة التريث عند عنصرين جوهريين يمتان بصلة وثيقة إلى موضوع الإسلام السياسي، أحدهما مفهوم الإسلام العقلاني الذي يطرحه الكاتب بديلًا للإسلام الأوروبي والتنويري والمعتدل، والآخر رؤية الكاتب حول مختلف تيارات الإسلام السياسي من سلفي وإخواني وجذرائي وغيره. وقبل الشروع في تناول هذين الجانبين نمهد لذلك بفقرات حول الكاتب والكتاب حتى نقرب القراء والمهتمين من طبيعة الطرح الفكري الذي يتبناه المثقف والإمام الأستاذ خالد بنحدو ويرافع من أجله في مختلف المناسبات الثقافية والدينية والمحافل السياسية والتربوية.

مثقف عقلاني في جبة إمام!

انطلاقًا من الكتاب الذي نضعه اليوم بين أيديكم يمكن أن نتبين بعض ملامح مؤلفه خالد بنحدو بكونه أحد المهتمين بالشأن الإسلامي على المستوى البلجيكي، وقد أهله وظيفته منسقبًا للتعليم

(2) Benhaddou, K. (2016). Is dit nu de islam? Gent: Borgerhoff en Lamberrigts. p. 13-14.

نفسه فرصة رائعة لصياغة أفكاره في قالب ما. فالإسلام يشكل دومًا جزءًا لا يتجزأ من حياتي؛ مصدر إلهام ومثلاً حيًا. إن فرصة توضيح الإسلام ورصده من خلال السياق الأوروبي حيث أعيش اليوم، لا يمكن تجاهلها. بل إنها أمر لا بد منه»^(٥).

كيف أنظر أنا المسلم الأوروبي إلى المستقبل؟

يحمل هذا الكتاب عنوانًا رئيسيًا: **هل هذا هو الإسلام الآن؟** يليه عنوان فرعي وتفسيري فحواه: كيف أعيش مسلمًا أوروبيًا في الزمن المعاصر. ويتكون الكتاب من ١٧٥ صفحة من الحجم الكبير، تتوزع على أربعة فصول حول الإسلام العقلاني، الأوجه المتعددة للإسلام، مواجهة التطرف وتأويل القرآن، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة. يحاول الكاتب أن يتوجه من خلال رؤاه وأفكاره إلى جمهور واسع من القراء. وهو يقدم نفسه بكونه مسلمًا باحثًا (عن الحقيقة) لصالح مجتمعه الإسلامي، وفي الوقت نفسه يسعى إلى صياغة إطار مفهومي لغير المسلمين^(٦). وفضلًا عن ذلك، فإنه يشدد على الدور التوفيقي الذي يمكن له أن يؤديه في المجتمع، «عندما أصبحت إمامًا في أكبر مسجد بمدينة خانت شكل لي ذلك أول منبر مهم لأؤدي دوري التوفيقي»^(٧). وهكذا جُمِد

سنة وُظِّفْتُ إمامًا في المسجد، وكان يجب علي أن ألقى خطبة الجمعة لأول مرة، حيث شعرت بعدم الثقة والارتباك. أجل أحفظ القرآن باللغة العربية عن ظهر قلب، لكن كان يتحتم علي الترجمة إلى اللغة الهولندية. متلعثمًا ومرتبجًا وقفت لأول مرة وأنا أخطب في ملأ غفير، وأنا أدرك أهمية الدور الذي يمكن أن ألعبه، بل وأدرك أنها مهمة كبيرة أن أقف بكلا رجلاي في المجتمع وما زلت»^(٨). وتجدر الإشارة إلى أن المركز الإسلامي الذي درس فيه الأستاذ بنحدو رغم أنه كان تابعًا للتيار الوهابي السلفي المدعوم من المملكة العربية السعودية، إلا أن تأثير السلفية كان ضئيلاً على المستوى التعليمي؛ لأن أغلب المدرسين كانوا من أصل مغربي، يختلفون في الكثير من القضايا العقدية والفقهية عن السلفية الوهابية بالخصوص^(٩).

ويحضر بنحدو من خلال الأنشطة والمحاضرات واللقاءات المتنوعة التي يساهم بها بانتظام على مختلف المستويات الدينية والتربوية والإعلامية، ما يجعل أفكاره تنتشر بشكل أو بآخر عبر وسائل الإعلام الفلامانكية، وكان من اللازم أن يصوغها في رؤية متكاملة ومتوازنة، وهكذا جاءت فكرة كتابه الأول، الذي نحن بصدد مراجعته: «عندما عرضت علي دار النشر تأليف كتاب حول الأسئلة والإشكاليات السابقة رأيت في ذلك نوعًا من التحدي، وفي الوقت

(5) Benhaddou, K. (2016). p. 8.

(6) Benhaddou, K. (2016). p. 8.

(7) Benhaddou, K. (2016). p. 19.

(3) Benhaddou, K. (2016). p. 14-15.

(4) Benhaddou, K. (2016). p. 14.

أكبر. كما أن العولمة والإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعية سوف تساهم في جلب النسخ المتشعبة من الإسلام إلى أوروبا، وهذا ما يؤدي إلى عكس ما تسعى إليه أوروبا، في الأوطان الأصلية. إن مصطلح الإسلام الأوروبي مفهوم غير مؤسس»^(٩).

وعلاوة على ذلك، فإن مفهوم الإسلام الأوروبي يحضر بشكل كبير في أجندة بعض القوى الأوروبية، حتى أن بعض المسلمين يشعرون وكأن الإسلام الأوروبي فرض عليهم. فالمسلمون الذين يوجدون على الهامش ولا يجدون منفذًا إلى بنيات القرار الأوروبي ينظرون بارتياح إلى ذلك؛ لأنهم الطرف المغيب في هذا النقاش، الذي لا يُستفتى في طبيعة الإسلام الأوروبي. لذلك ألغى الكاتب بوعي مصطلح الإسلام الأوروبي من قاموسه الخاص، وهو يجزم بأن الإسلام العقلاني الذي يرافع من أجله هو الأنسب لأوروبا بشكل عفوي^(١٠).

ومع كل هذا النقد لمفهوم الإسلام الأوروبي، إلا أن محاولة الكاتب لا يمكن فصلها في آخر المطاف عن دائرة الإسلام الأوروبي، الذي يشكل جزءًا لا يتجزأ منه، سواء على مستوى السياق أو التصور. فالحديث عن إسلام أوروبي لا يمكن أن يشكل أي توتر أو ثنائية مع أوروبا بقدر ما يرسخ ذلك الطابع

الكاتب الكثير من أنشطته، فلم يعد يقبل مختلف الدعاوى التي تأتيه، لا لشيء إلا لأنه أصبح يدرك أن مهمته من اليوم فصاعدًا هي فهم ميكانيزمات وبنيات الثقافة الأوروبية، حتى يمكن ربط القيم الإسلامية بها. ثم اكتشاف العلاقات القديمة بين الغرب والشرق، التي من شأنها أن تساعد على مد الجسور بين العالمين^(٨).

في نقد الإسلام الأوروبي والتنويري والمعتدل

ما يسترعي الانتباه أن الكاتب ينتقد بشدة مختلف أنماط التدين والتفكير الإسلامي لصالح ما يطلق عليه الإسلام العقلاني، فهو لا يرفض فقط الإسلام السياسي بمختلف مظهراته السلفية والإخوانية والراديكالية؛ بل أيضًا غيرها من «الإسلامات» إن جاز التعبير. كالأوروبي والتنويري والمعتدل. يقول في نقضه للإسلام الأوروبي: «أنا أوروبي ومسلم، لكن الإسلام الأوروبي يعني أن هناك عالمًا مزدوجًا يتكون من أوروبا من جهة ومن كل ما هو خارجها ويمكن أن يشكل تهديدًا ما من جهة أخرى. عندما نتحدث عن الإسلام الأوروبي نرسخ تلك الثنائية أكثر ونزرع التوترات بين الجانبين. وهكذا سوف يترتب عن ذلك نشوء أصناف مختلفة من الإسلام، فيصبح ربما تأثير البلدان الأصلية على المسلمين الأوروبيين

(9) Benhaddou, K. (2016). p. 34-35.

(10) Benhaddou, K. (2016). p. 35, 36.

(8) Benhaddou, K. (2016). p. 16.

العولمة، وأيضًا الفردانية⁽¹²⁾؛ غير أنه ماذا عن التنوير الذي شهده العالم الإسلامي عندما كانت أوروبا تتخبط في ظلام العصور الوسطى وسوف يشكل لاحقًا الأساس الذي قامت عليه النهضة الغربية؟

إذا كان الإسلام الأوروبي يشطر المجتمعات الأوروبية إلى أجزاء متنافرة وثنائيات متضادة، وإذا كان التنوير ليس إلا مرحلة تاريخية تحسب على الماضي، فإن الإسلام المعتدل حمال أوجه، فهو يخفي عكس ما يظهر، لذلك لا يمكن أن يكون هناك إسلام معتدل. «لا، لأن مصطلح المعتدل لا يخفي إلا ما لا ينبغي أن يكون، بالتحديد الإسلام الراديكالي، لكنه لا يكشف شيئًا عما يجب أن يكون»⁽¹³⁾، على حد تعبير الكاتب. هكذا يقابل الكاتب إذن بين الإسلام المعتدل والإسلام الراديكالي أو الجذرائي دون أن ينتبه إلى أن المفهوم الأول يستمد شرعيته من القرآن الكريم الذي يدعو إلى الاعتدال والوسطية والسلم؛ وهي شرعية إلهية قبل كل شيء. في حين أن مفهوم الإسلام الراديكالي هو مفهوم إيديولوجي بامتياز ترتب عن طبيعة فهم الناس للدين وتأويلهم لجملة من النصوص والحقائق. بعد أن انتقد بنحدو هذه المفاهيم الثلاثة التي تشغل حيزًا كبيرًا في الخطاب الفكري والأكاديمي المعاصر، يقدم البديل الذي

الإيجابي والتراكمي الذي اكتسبه المسلمون الأوروبيون من خلال استقرارهم الطويل في البلدان الأوروبية، وانتقالهم من مرحلة الهجرة إلى مرحلة المواطنة. على مستوى التصور يرسخ مفهوم الإسلام العقلاني الإرث الرشدي الذي انتقل عبر الأندلس إلى أوروبا، فشكل أحد دعائم التنوير والحداثة الغربيين، وهكذا فإن هذا المفهوم يعضد الدور الحضاري للإسلام على أوروبا، أو ما يسميه وليام مونتغمري وات «فضل الحضارة الإسلامية على أوروبا»⁽¹⁴⁾.

ولا يكتفي بنحدو بدحض الإسلام الأوروبي، بل يوضح بأن مرافعته للإسلام العقلاني لا تعني العودة إلى الإسلام التنويري. فعادة ما يسمع أن الإسلام يحتاج إلى تنوير، بالضبط كالذي شهدته أوروبا، لكن ما يغيب عن أولئك هو أن التنوير مرحلة خاصة في التاريخ، وقد ظهرت للإجابة عن جملة من الأسئلة التي كانت تطرح في ذلك الزمان. إنها رد فعل على السلطة الدينية الدوغمائية. بالفلاسفة والعلماء آمنوا بقوة العقل لتحقيق التطور. وهكذا شكل التنوير مسارًا اجتماعيًا كانت أوروبا في أمس الحاجة إليه. ما أدى إلى نشوء حداثة واسعة على أساسها قامت حقوق الإنسان، حقوق المواطنين، النسوية، التحرر العلمانية،

(12) مونتغمري وات، (١٩٨٣-١٤٠٣)، فضل الإسلام على الحضارة الغربية، طا (ترجمة: حسين أحمد أمين). القاهرة: مكتبة مدبولي.

(12) Benhaddou, K. (2016). p. 36.

(13) Benhaddou, K. (2016). p.37.

إذ شكل التفكير العقلاني في ذلك الزمان منطلقاً مرجعياً للبناء عليه، وينبغي إدراجه اليوم في التفكير الإسلامي؛ لأن لغة العقل والعلم هي بالطبع اللغة المشتركة^(١٥).

وأكثر من ذلك، فإن الإسلام العقلاني يمكن أن يشكل أيضاً حلاً للانشقاقات الإيديولوجية والطائفية التي يشهدها العالم العربي والإسلامي منذ قرون طويلة، بل وقد تصاعدت وتيرتها في المرحلة الأخيرة. فالإسلام العقلاني يمكن أن يقرب ويعالج الصراع الشيعي السني على أساس نقدي وليس دوغمائي^(١٦). ثم إن هذا النمط من الإسلام الذي يراهن عليه الكاتب يستند إلى قراءة أوروبية، ويعمل على البحث عن القاسم المشترك الكبير. ولن يتأتى ذلك إلا إذا ابتعد الخطاب الإسلامي المهيمن عن أحكام القيمة، وعن التمسك الشديد بالمثل المحسوبة على الزمن الغابر وبالإحباطات كرد أفعال على الماضي^(١٧).

غير أن الدعوة إلى إقرار إسلام عقلاني ليست جديدة على العالم العربي والإسلامي، فقد سبق لعشرات المفكرين المسلمين الرواد منذ النهضة الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين أن طرحوا البديل العقلاني في مختلف أبعاده السياسية والاجتماعية والتربوية والدينية وغير ذلك.

يراهن عليه، ويرى أنه الحل الأنجع لإخراج المجتمع الإسلامي من دوامة التخلف التي يتخبط فيها منذ قرون طويلة، ف«لا الإسلام الأوروبي، لا الإسلام التنويري، لا الإسلام المعتدل، لكن الإسلام العقلاني، الذي يجب على المسلمين أن يتعلموه حتى يتصرفوا بشكل عقلاني مع سياقتهم وواقعهم. إن فكرتي حول الإسلام العقلاني لا تشير إلى العقلانية بكونها تتعارض مع التجريبية والليبرالية كتيار سياسي. إن الإسلام العقلاني جد واسع ويركز باختصار على التفكير النقدي»^(١٤).

وتأكيداً للبديل العقلاني الذي يرافع من أجله الكاتب ينقب عن جذور التفكير العقلاني في التراث الديني والفلسفي الإسلامي، ليثبت أن العقلانية ليست أمرًا غريبًا عن الإسلام؛ دينًا وتاريخًا وثقافة؛ «فالإسلام شهد عبر تاريخه مراحل مزدهرة على المستوى العلمي، وهذا يعني أن الإسلام العقلاني ليس مفهومًا غريبًا، حيث تم التوفيق بين العقل والوحي». ثم يضرب مثال بيت الحكمة الذي أسسه الخليفة العباسي المأمون في القرن التاسع، وكان يحتوي على مكتبة ومركز ترجمة يشرف عليه مترجمون عراقيون وسوريون مسيحيون قاموا بترجمة الكتب الفلسفية والرياضية من الفارسية والإغريقية. كما يستشهد بآبن رشد الفيلسوف الذي شكل مصدر إلهام له؛

(15) Benhaddou, K. (2016), p. 37-38.

(16) Benhaddou, K. (2016), p. 40.

(17) Benhaddou, K. (2016), p. 34.

(14) Benhaddou, K. (2016), p.37.

وقد سبق للمفكرين المسلمين أن حاولوا البحث عن الأسباب التي أدت إلى تقدم الغرب منذ القرنين السادس والسابع عشر في حين لا يزال المسلمون يوجدون على هامش التاريخ. ويجزّون أذبال التخلف والانحطاط. ويرى الكاتب أن هذا السؤال تمت الإجابة عنه بطريقتين. إحداهما تعتقد أن المفاهيم الغربية مثل الليبرالية والاشتراكية والوطنية تشكل المفاتيح الجوهرية لتقدم العالم العربي. والأخرى تتجسد في السلفية بمختلف تياراتها كالوهابية في السعودية والسنوسية في ليبيا والإخوان المسلمون في مصر. وكل هذه التوجّهات تشدد على العودة إلى المرحلة النبوية: لأن التأخر وضياح المعرفة والعلم جاء نتيجة عوامل خارجية، ولا يمكن الانفكاك من إسارها إلا عن طريق الرجوع إلى خط الإسلام الصافي. والملاحظ أنه رغم اختلاف هاتين الطريقتين، إلا أنهما توظفان المقارنة نفسها بين حاضر الإسلام والغرب من ناحية أو بين حاضر الإسلام وماضيه من ناحية ثانية. وهذا خطأ كبير؛ لأن هذه الموازنات لا يمكن أن تنجح. فما يصلح لأوروبا لا يمكن أن يصلح أو يناسب بالضرورة الحضارات الأخرى. والتحولت التي شهدتها أوروبا كانت إجابة عن الإشكاليات التي كانت تواجهها، واستجابة للظروف الخاصة بها⁽¹⁹⁾.

وأذكر على سبيل المثال: سيد أحمد خان، محمد عبده، محمد إقبال، سيد حسين نصر، محمد عابد الجابري ومحمد أركون. ومع ذلك كله، لا زالت تسود العالم الإسلامي الانشقاقات السياسية والتمزقات الاجتماعية والانسدادات الفكرية!

فشل الإسلام السياسي

أفرد الكاتب الفصل الثاني من مؤلفه للإسلام السياسي بمختلف تياراته الدعوية والسياسية والراديكالية، واللافت للنظر أنه يضع أغلب هذه التيارات في بوتقة السلفية. على أنها تاريخياً تعتبر امتداداً للسلفية الأم التي تركز بالدرجة الأولى على العودة إلى المرحلة النبوية الذهبية. ولعلها نفسها السلفية التي تشرب الكاتب ببعض معارفها. كما جاء على لسانه مؤكداً بأنه غير مسكون بالسلفية، غير أنه يعترف في الوقت نفسه بأن بعض رواستها بقيت عالقة في جملة من الأفكار التي كان يحملها في السابق مثل: خطاب النحن-الهم، القناعة بأن المجتمع يتكون من طائفتين، اختزال الناس فيما هو ديني، وقد كان يتعاطى لتلك الأفكار بشكل غير واع⁽¹⁸⁾، لا سيما قبل أن ينخرط في دراسة الفلسفة الإسلامية والغربية التي منحتة آليات التفكير العقلاني، الذي يرى أنه السبيل الأوحى للتوفيق بين الإسلام والحدثة الغربية.

(19) Benhaddou, K. (2016). p.62-63.

(18) Benhaddou, K. (2016). p. 15.

(الأفغاني، عبده) بإشكالية التقدم وإصلاح الإسلام من الداخل^(٢٠).

ولا يمكن الحديث عن السلفية دون الإشارة إلى الوهابية التي تعتبر أحد أهم التيارات السلفية، التي نشأت منذ القرن الثامن عشر في السعودية على يد محمد بن عبد الوهاب الذي سمي هذا التيار على أساس اسمه. وقد أبرم عشية تأسيس حركته الإصلاحية اتفاقاً مع العائلة الحاكمة آل سعود، حيث تم التفاهم على أن النخبة السياسية والدينية تحمي بعضها بعضاً إلى الأبد. وجراء هذا الاتفاق التاريخي لم تتحول النخبة الدينية إلى ممارسة السياسة. فالسلفيون في السعودية ظلوا إلى اليوم بعيدين عن السياسة، بل ويعارضون إجراء الانتخابات الديمقراطية، ما دام أن النخبة السياسية تشكل دوماً مظلة وقائية للنخبة الدينية^(٢١). ونعتقد أنه لا يمكن استيعاب نشأة الحركة الوهابية في القرن الثامن عشر وتداعياتها اللاحقة في انفصال عن السياق التاريخي والاجتماعي والسياسي الذي ظهرت فيه، وهو سياق خاص كانت تتقاطع فيه مختلف الخيوط السياسية والإيديولوجية سواء على المستوى المحلي (نشوء تدين عرفاني) أو الإقليمي والدولي (تمدد الإمبراطورية العثمانية، بداية الأطماع الإمبريالية الأوروبية). لذلك، فإن هذه الحركة الدينية-

وقد تعرض الكاتب إلى مختلف تيارات الإسلام السياسي تعريفاً ونقداً، بدءاً بالسلفية الوهابية، مروراً بالإخوان المسلمين وحزب التحرير وجماعة الدعوة والتبليغ، وصولاً إلى السلفية الجهادية ممثلة في تنظيم داعش. ليخلص بعد ذلك إلى تأكيد فشل الإسلام السياسي الذريع في ترجمة رؤاه على أرض الواقع، وتحقيق المجتمع المثالي المتجسد في المرحلة النبوية الصافية التي يحلم بها كل مسلم.

ينطلق الأستاذ بنحدو من مصطلح السلفية عامة بكونه مشتقاً من اللفظة العربية سلف، التي تعني لغوياً «الذي سبق». وبالنسبة لاتباع السلفية فتعتبر العودة إلى السلف الأوائل والأجيال الثلاثة الأولى من الأهمية بمكان، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم ينعت تلك الأجيال بالذهبية. ومن ثم فالحياة وفق معاملات المسلمين وأخلاقهم في ذلك الزمان، تعني لكل السلفيين على اختلاف تسمياتهم العودة إلى الإسلام الصافي. ولعل هذا النوع من التفكير جاء نتيجة ضعف الدولة العثمانية والتفكير في الإصلاحات. وقد بدا أن العودة إلى مرحلة ما قبل حدوث الصراعات والانشقاقات داخل الإسلام (ما قبل الخلاف) تشكل المنطلق الجوهرى لهذا الإصلاح. لذلك انشغل بعض المفكرين المصلحين

(20) Benhaddou, K. (2016). p. 64.

(21) Benhaddou, K. (2016). p. 65.

السياسية كانت في إبانها، وبمقاييس تلك الحقبة «تجديدية»، بينما تبدو في ضوء مقاييسنا المعاصرة «رجعية» و«أصولية»، وهي في الحقيقة مقارنة غير موضوعية. ثم إن الحركة الوهابية التي تدعمها المملكة العربية السعودية ليست صدامية ولا تدعو إلى العنف؛ لأن أتباعها لا يسعون في الأصل إلى تأسيس دولة إسلامية، فالدولة الإسلامية المثالية بالنسبة إليهم هي السعودية نفسها، ويجب تعميم هذا النموذج على البلدان العربية. ويضيف الكاتب أن دعم الإيديولوجية الوهابية لم يقتصر على الداخل السعودي والعربي فحسب، بل تجاوز ذلك إلى أوروبا والعالم، فمنذ ستينيات القرن الماضي إلى اليوم استثمرت السعودية ما يعادل ٨٧ مليار دولار لدعم السلفية الوهابية في أوروبا وحدها، ويساهم في بعض الأحيان في ذلك بعض القادة الأوروبيين بسبب الأهداف الاقتصادية الاستراتيجية التي قد يجلبها وجود السلفية في أوروبا⁽²²⁾. ثم إنه لا يمكن غض الطرف عن الفراغ الديني الذي كان يسود بين المهاجرين الأوائل في أوروبا، ما منح الفرصة للسلفية الوهابية لأن تتمدد وتنتشر⁽²³⁾.

وهكذا فإن التيار الوهابي الذي لا يؤمن بالسياسة ويرفض كل أشكال العمل

الديمقراطي، قد شكل آلية إيديولوجية في أيدي السياسيين السعوديين من أجل تعميم نمط معين من التفكير الديني السلفي. أما تيار الإخوان المسلمين، فيكشف منذ البداية عن أنه يؤمن بممارسة السياسة وتنزيل مفهوم الديمقراطية، بل والتوفيق بين ما هو سياسي وديني. وقد ظهر هذا التيار كما يسرد الكاتب، بعد وقت قصير من سقوط الخلافة الإسلامية (العثمانية). ففي عام ١٩٢٦ أسس الحسن البنا في مصر تيار الإخوان المسلمين، الذي بدأ باعتباره حركة مقاومة للاحتلال البريطاني. إن البنا رجل سعى إلى التوفيق بين الدولة والدين وهو يحذوه طموح العودة إلى زمن الخلافة، التي يرى فيها الحل الأمثل لتقدم المسلمين. ويعتبر الإخوان في الأصل تيارًا سلفيًا كان في حاجة إلى ممارسة السياسية لأنه لم يُدعم من السياسيين كما حدث في السعودية التي دعمت الوهابية. فالإخوان كان ينظر إليهم منذ البداية على أنهم يشكلون خطرًا، لذلك تمت ملاحقة قادتهم وإيداعهم في السجون في زمن جمال عبد الناصر وأنور السادات. وسوف يتحول الإخوان المسلمون مع مرور الأيام إلى حركة سياسية تؤمن بالديمقراطية وسيلة لبناء الدولة الإسلامية. وقد تجلّى بناء الدولة الإسلامية لاحقًا من خلال أسلمة الدولة الحالية⁽²⁴⁾.

ورغم مرور حوالي قرن كامل عن ظهور

(22) Benhaddou, K. (2016). p. 77.

(23) Benhaddou, K. (2016). p. 69.

(24) Benhaddou, K. (2016). p. 65-66.

على أساس الشريعة الإسلامية. على أن الرأسمالية والديمقراطية لا يمتان بصلة إلى الإسلام. ويستخلص الكاتب أنه على خلاف تيار الإخوان المسلمين لا يقبل حزب التحرير الأنظمة الديمقراطية سواء بكونها وسيلة أو غاية. فهم يرفضون أي شكل من أشكال العنف ويراهنون على التغيير من القاعدة، لكن السؤال الذي يظل معلقاً مفاده: ما هي الوسائل التي يمكن اعتمادها لنشر ذلك الوعي وتأسيس الدولة الإسلامية؟⁽²⁶⁾

وينهي الكاتب كلامه عن أهم التيارات الإسلامية بإطلاقة خاطفة على جماعة الدعوة والتبليغ، التي وإن كانت لا تمت بصلة إلى ما هو سياسي، إلا أنها تستطيع أن تؤثر في بعض التوازنات السياسية، وقد تأسست في باكستان، ويمكن أن نقارنها بجماعة «شهود يهوه» المسيحية. يسافر أتباعها عبر مختلف بقاع العالم من أجل الدعوة، ويؤمنون بأن من يتعامل بشكل سلمي مع الحياة سوف يعيش أيضاً في سلم مع نفسه والعالم. ورغم أن هذه الجماعة ليست سياسية إلا أنها أثرت بشكل كبير في تقسيم الهند الكبرى وظهور باكستان.⁽²⁷⁾

والجدير بالذكر، أن مختلف هذه التيارات التي يدرجها الكاتب تحت لواء السلفية الأم

حركة الإخوان المسلمين إلا أنها لم تفلح في ترجمة مشاريعها على أرض الواقع، وهذا يعني أنها فشلت في مهمتها كما يستخلص الكاتب، «ثمانون سنة والإخوان المسلمون يصرخون ويقولون بأنهم طوروا نموذجاً خاصاً، لكن عندما بلغوا الحكم اقترضوا قرصاً من صندوق النقد الدولي مقابل فائدة جد عالية تحت ذريعة أن الغاية تبرر الوسيلة. هذا مسموح، فهو مفهوم معروف في الإسلام لا سيما في الظروف الاستثنائية، لكنه لا يمكن اعتباره مفهوماً يمكن أن نؤسس عليه نموذجاً اجتماعياً قائماً بذاته. وهكذا انقلب الإخوان على الكثير من المبادئ التي كانوا يتبنونها خلال عقود طويلة، وخير مثال على ذلك التعامل الربوي الذي حرموه طويلاً، والآن يحللونه تدرجاً بما هو اجتماعي واقتصادي»⁽²⁸⁾.

ولعل هذا الفشل ينطبق بشكل أو بآخر على تيار حزب التحرير الذي يحمل إيديولوجيا غير واضحة المعالم، لاسيما على مستوى الآليات والميكانيزمات المعتمدة لتنزيل أجندته الدينية والدعوية على أرض الواقع. إن حزب التحرير منظمة سنوية سياسية ذات طابع عالمي يقدر أتباعها بالملايين؛ إذ يستقر أغلبهم في الأردن ولندن. ويتحدد هدف هذا التيار الجوهري في توحيد المسلمين في دولة إسلامية واحدة،

(26) Benhaddou, K. (2016). p. 66.

(27) Benhaddou, K. (2016). p. 66.

(28) Benhaddou, K. (2016). p. 68.

بالعنف والقتال والجهاد لمواجهة سواء المرتدين والعصاة داخليًا من أنظمة الحكم الاستبدادية وأذناها أو الكفار والصليبيين خارجيًا من أعداء الإسلام والمناوئين له. ويرى الخبراء في الحركات الإسلامية أن أكبر تيارات السلفية الجهادية انبثقت من السلفية الوهابية والإخوان المسلمين، لا سيما في ستينيات القرن الماضي حيث كانت ترتفع أصوات راديكالية تدعو إلى العنف. كما أن أحد كبار قادة القاعدة ينتمي إلى تيار الإخوان، وهو أيمن الظواهري الذي كان قد أسس حركة الجهاد الإسلامي⁽³⁰⁾.

ولعل ما يغيب عن الكاتب هنا هو أنه كثيرًا ما يُتذرع بهذا التفسير في النقاشات السياسية والإعلامية. لكن دون إدراك أن عددًا كبيرًا من منفعدي الهجمات الإرهابية داخل أوروبا وخارجها لا يمتون بصلة. لا إلى التيار السلفي ولا إلى الإخوان المسلمين. ثم إن الحركات الراديكالية أو القتالية التي انبثقت عن هذين التيارين. إن صحت هذه الفرضية، لا يمكن استيعابها إلا ضمن ظروفها وبشروطها التاريخية والسياسية والنضالية، التي نشأت فيها أول ما نشأت، فتلقت الدعم الشعبي والإعلامي والأدبي والطلابي الكبير، غير أنها فقدت هذه القاعدة الداعمة بمجرد ما انحرفت إلى العنف والأدلجة والتسييس.

ليست كلها راديكالية أو عنفية، فالسلفية الوهابية لا تسعى إلى إقامة دولة إسلامية؛ لأنها ترى في السعودية الدولة الإسلامية المثلى، التي يجب على البلدان العربية والإسلامية اقتفاء أثرها واتخاذها قدوة لها. والإخوان المسلمون يعتبرون تحقيق الدولة الإسلامية أو أسلمة الدولة هدفهم الجوهرى، ويعتمدون في ذلك آلية الديمقراطية، لذلك ينظر إليهم بعين الريبة والتخوف؛ في حين أن السلفية الجهادية، ومنها تنظيم داعش، يرى أتباعها أن العنف هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق مشروع الدولة الإسلامية، لذلك فهم يدعون إلى الجهاد، أو بالأحرى إلى القتال المسلح⁽²⁸⁾. وكل هذه التيارات فشلت فشلًا ذريعًا على المستوى الإيديولوجي؛ إذ لم تتمكن من الإجابة عن إشكاليات القرنين العشرين والواحد والعشرين، فهي تقدم أجوبة إسلامية عن قضايا يتم استيرادها من الخارج⁽²⁹⁾.

داعش وإدارة التوحش

وفي مقابل هذه الحركات الإسلامية التي تختلف في تعاطيها مع ما هو سياسي بين من يرفض ممارسة السياسة، ومن يوفق بين الديمقراطية والدين، ومن يقتصر على الدعوة إلى الله، تنتصب السلفية الجهادية التي تؤمن

(28) Benhaddou, K. (2016). p. 66-67.

(29) Benhaddou, K. (2016). p. 69.

(30) Benhaddou, K. (2016). p. 67.

العام يصبح الأمر مقلِّبًا^(٣٢).

وفيما يتعلق بتنظيم داعش الذي أقام الدنيا ولم يقعدھا، فإن كتاب **إدارة التوحش** لمؤلفه المجهول أبو بكر ناجي يعتبر بمثابة الدستور الملهم لها. فهو يقدم بشكل دقيق استراتيجية إقامة وإدارة الدولة الإسلامية. كما أنه يتضمن خارطة طريق من خطوات محددة، مثل زعزعة الاستقرار على مستوى المناطق، والبحث عن الأماكن التي تشهد الفوضى، وإذا لم تكن موجودة فعلى تنظيم داعش خلق الفوضى حتى يوضع الشعب أمام مفترق الطرق: إما اختيار الدمار العام والفوضى وإما قبول داعش كبديل. ثم إن هذه الفوضى والبربرية أو التوحش يتماشيان معًا؛ إذ بواسطتهما يتم ترهيب العالم، مبررين أن كل شيء مشروع، وأن العيش تحت الكفار غير مقبول^(٣٣).

ويلحظ من خلال ما سبق، أن الكاتب لم يتناول تيارات إسلامية أخرى تشغل حيزًا كبيرًا في المجتمعات الإسلامية، وتؤدي دورًا مصيريًا في موازين القوى الدعوية والسياسية، سواء في الداخل أو في الخارج، كالشيعة والأحمدية والصوفية، ويعتبر التيار الأخير: الصوفية أحد أهم روافد المجتمع الإسلامي الذي

ويعتبر اليوم تنظيم داعش (بالإضافة إلى القاعدة) أهم تيارات السلفية الجهادية، وتشكل العودة إلى الماضي النبوي الزاهر أحد أهم عقائدها. ويرى الأستاذ بنحدو أنه «لا يمكن العودة إلى حقبة غير موجودة مهما كانت الطرق. فالشباب هنا يجب أن يثق بالدرجة الأولى في الثقافة الأوروبية، وفي مؤسسات هذا البلد. ولعل هذا ما قد يتحقق من خلال توعيتهم عن طريق التوفيق بين هويتهم الدينية والمواطنة الفاعلة. وحتى لا يظلون طويلًا على الهامش، يجب أن يؤدي دورًا فاعلًا في المجتمع»^(٣١).

ثم إنه يجب أن نعترف بأن التطرف يحصل من الجانبين، إلا أنه عندما تنفذ عملية من إرهابي يردد الله أكبر، يسدل المرء الستائر ويغلق الباب. ينبغي للسياسة على العكس أن تتجاوز ذلك، وتمنح الأولوية للمصالح العامة التي تخص كل المواطنين، ومنها فئة مهمة من أصول إسلامية. إن انتصار الشعبوية وتشديد الخناق وسياسة القطبية أصبح اليوم أمرًا واقعيًا. لا يمكن أن نغض الطرف عن المسلمين المتطرفين، فهؤلاء يقسمون البلد أيضا إلى معسكرين. المتطرفون من أي أصل، ينبغي أن يبقوا على الهامش، فعندما تمارس هذه الأصوات تأثيرا على الرأي

(32) Benhaddou, K. (2016). p. 33.

(33) Benhaddou, K. (2016). p. 83-84.

(31) Benhaddou, K. (2016). p. 31-32.

والبديل العقلاني، ونحن ندرك تمام الإدراك أن مثل هذا الجهد يستحق قراءة نقدية مُوسعة تحفر عميقًا في هذه الأفكار، التي باتت تشكل اليوم أهم الموضوعات التي تشتغل بها مراكز البحث في مختلف الجامعات الأوروبية والغربية والإسلامية.

يستقطب اهتماما منقطع النظير في السياق الأوروبي، لاسيما من خلال مكوناته الروحية والأخلاقية التي تشكل بديلا لعقلانية الغرب الغارقة في المادية.

خلاصة

من خلال هذه المراجعة تتضح بعض ملامح المقاربة التي يتبناها الأستاذ خالد بنحدو، ويسعى من خلالها إلى طرح بديل موضوعي يطلق عليه «الإسلام العقلاني»، وذلك بغرض الإسهام من موقعه في النقاش الدائر حول مختلف قضايا الإسلام والمسلمين، لا سيما في السياق الأوروبي الذي يعيش فيه. وقد بلور جملة من الرؤى التي لاقت تجاوبًا خصوصًا من قبل غير المسلمين الذين يجهلون عقلانية الإسلام ودوره المعرفي والحضاري. غير أن «النقد المطلق» الذي يمارسه الكاتب على مختلف المفاهيم والتيارات الإسلامية لصالح ما يطلق عليه «الإسلام العقلاني» من شأنه أن يلقي التحفظ لا سيما من الشرائح المسلمة المحسوبة على هذه التيارات أو المتعاطفة معها، وتعتبر نفسها شقًا من التعددية الفاعلة التي يضمنها القانون الغربي لجميع مكونات المجتمع. وقد اكتفينا بتقديم هذه المراجعة المسحية لأهم المواقف والأفكار التي تخص بالدرجة الأولى الإسلام السياسي

